

ليست تلفيقية ولا توفيقية

وانما انتقائية تكاملية

دكتور / سعيد اسماعيل على

هناك من الناس من لا يرون فى الدنيا الا الأسود والابيض أو عندما تقول أن هناك لونا أصفر أو أحمر أو أخضر أو غير ذلك من الألوان الأساسية وصفوا ذلك بأنه (لا موقف) ، لأن الموقف هو فقط اما من الأبيض أو الاسود . وقد نجد البعض يسلم - على كره منه - بمثل هذا (التعدد) فى الألوان ، لكنه يظل (معتقلا) فكره فيها حتى اذا ما قلت بألوان أخرى مثل البرتقالى أو البنفسجى مثلا ، قالوا أنها عملية (توفيق) بين هذا اللون أو ذاك ، ولا جديد فى الأمر ، فالبرتقالى هو بعض من الأحمر والأصفر ، والبنفسجى بعض من الأزرق والأحمر .

كذلك الموقف من المذاهب الفكرية والصراع الأيديولوجى فى عالمنا المعاصر ، فهناك أيديولوجيتان : اما تلك التى يسير الشرق السياسى وفقا لها ، واما تلك التى يسير عليها الغرب السياسى ، بحيث اذا رفضت احدهما ، فلا بد أن تكون قابلا ومنتميا الى الأخرى ، فاذا ما أكدت أنك لا تقبل هذه برمتها ولا تلك ، قيل أنك بلا موقف وبلا أيديولوجيا .

واذا قلت أن فى كليهما بعض الجوانب الايجابية التى يصعب رفضها ، تكون الطامة الكبرى ، فالقبول يجب أن يكون للمذهب كله والرفض كذلك يجب أن يكون له كله . ان المذهب كل متكامل من الأجزاء والعناصر ، هذا مرتبط بذاك وبنى عليه ، ولا يفيد أن تأخذ قطعة من هنا وقطعة من هناك ، ولو فعلت ذلك وقلت أنك ستعيد التركيب لتنشئ بناء آخر ، فأنت اذن تقوم بعملية (توفيق) ، هذا عندما يسود جو (الأدب) الكتابة والحديث ، ولز أردت الحقيقة لوجدت أن نتيجة الاعتراضات على عمليات (الانتقاء) ولي (التكامل) و (اعادة التركيب) انما يضع هذه العمليات فى خانة (التلفيقية) .

ان المسلمة الأساسية التى يقوم عليها هذا المقال ، هى أن الحقيقة الكاملة انما هى ملك لله وحده ، فهو الخالق المبدع لكل ما فى هذا الكون ، (دراسات تربوية)

ومن ثم فإن فهم الانسان ووعيه انما هو (اجتهد خاص) بجزء من الحقيقة أو ببعض أجزائها بجكم محدودة وسائل وأدوات الفهم والادراك بدليل ما تكشف عنه الدراسات العلمية يوما بعد آخر ، إذ أن هذه الاكتشافات تؤكد بما لا يدع مجالا للشك أننا بالأمس كنا نتصور أننا نعرف (كل شيء) ، فإذا بنا لم نؤت من العلم الا قليلا ٠٠

وعلى ذلك ، فعندما يقف مفكرا أو فيلسوف ليقول انه يرى أن حقيقة الانسان هي كذا وكذا ، أو أن حقيقة التطور الاجتماعي هي كذا وكذا ٠٠ الخ فإن الرأي الذى يسوقه ويقدم له الحجج والبراهين انما هو مجرد اجتهد ورؤية خاصة له ، فحجته تنحصر فى حدود معينة ، ويصعب القول بأنه قد وصل الى الحق الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ولا بأس من أن يظهر اتباع واتباع الأتباع يؤمنون بما يقول ، ويذهبون نفس المذهب ويضيفون عليه ويعدلون فيه ويكون حكمهم أيضا هو نفس الحكم : الاحتمالية ! ٠

ولأنه (اجتهد خاص) و (احتمالية) ، و (رؤية من طرف واحد) تجد هذا الرأي الذى يسوقه المفكر لا يقتنع به آخرون ، ويبرز من هؤلاء من يذهب مذهبا آخر ، ويكون هذا شيئا طبيعيا ٠٠ لكن من غير الطبيعى حقا أن يزعم أحدهما أنه هو وحده الذى أبصر الحقيقة بتمامها وكمالها ، وأن الآخر لابد أن يكون مخطئا ٠

أننا نكرر هنا ذلك التشبيه الذى أورده ابن طفيل عندما قال أننا كبشر مثل مجموعة من العميان وقفوا حول (فيل) وطلب من كل واحد منهم أن (يحس) ما هو الشيء الذى أمامه - ولم يكونوا على معرفة به - فمد واحد يديه وتحسس ما أمامه وكان أمام (سن الفيل) ، وقال أنه كذا وكذا ٠ ومد آخر يديه وتحسس ما أمامه وكان أمام الذيل فقال بقول مختلف تماما ٠٠ وهكذا كل واحد ، فإذا ما تساءلت : هل أصاب هذا أم ذاك ؟ لوجدت أن كلا منهم قد أصاب (جزءا) من الحقيقة ، لكنه اذا زعم أن هذا (الجزء) يعبر عن (الكل) ، لوقع فى خطأ كبير ٠

فإذا ما جمعت رأى هذا ورأى ذاك فى دقة وتكامل بحيث لا تضع

(الذيل) أسفل (القدم) مثلا ، أو الفم وسط البطن ، فلا تكون العملية هي مجرد (توفيق) وانما هي (اعادة تركيب) من أجل الوصول الى وحدة متكاملة تقرب بك بقدر الامكان من الحقيقة .

وحتى يكون حديثنا فى العدد السابق من (دراسات تربوية) للدكتور عبد السميع سيد أحمد بعنوان (أزمة الهوية فى الفكر التربوى فى مصر) .

وبداية ، فلا بد لى بصفة خاصة أن أسجل تقديرى الكبير لتلك العقلية الناقدة الثاقبة التى أبرزت هذا (العمل الفكرى) الذى اعتقد أن كل من قرأه لابد أن يشاركنى (المتعة العلمية) ، لما تبدى فى الدراسة من بصيرة واضحة وأفق متسع وثقافة متنوعة ووعى عميق . انك تقرأها فلا تتصور أنها يمكن أن تكون لواحد يقف فى أول سلم هيئسة التدريس الجامعى ، وانما هي لـ (أستاذ) حقيقى ، هذا اذا ألغيت من ذهنك (الكادر الوظيفى) ونظرت الى (الأستاذية) كقدرة ومهارة وفن وممارسة .

انظر اليه وهو يشير الى تلك الظاهرة المؤسفة التى تسم حياتنا الفكرية، وهى غياب النظرات النقدية التى تثير الجدل والحوار وتساعد على اثراء الفكر ونموه وتطوره وتصحيحه ، يقول بتعبيرات ذكية غاية فى البراعة وسلاسة الأسلوب وقوة المنطق وجمال العبارة :

« لعل من الملاحظ أن حياتنا الفكرية بوجه عام تفتقر الى حد بعيد الى مثل هذا الجدل ، ذلك جزء من أزمة الفكر فى وقتنا الحالى تعبر عن أزمة واقع شامل . ان مؤامرة النسيان عن طريق الصمت جاهزة دائما ، حتى الأعمال الكبيرة التى يقدمها أعلام الثقافة فى عصرنا ، لا تنال من الاهتمام على الاطلاق - الا بعض الثناء هنا أو هناك ، ثم تصبح مرجعا لمن يشاء أن يعتمد عليها ولا يشتبك معها فكر آخر بالقبول أو الرفض فى كلياتها أو جزئياتها ، ص ١٢٢ .

ولا تملك حقا الا أن تصفق طربا من ذلك التشبيه ولكنه يبكيك عندما يقول - مثلا) : حتى الجفا محروم منه . يا ريتها دامت أيامه « :: فهو يقول فى عبارة موجزة :

« أنه كما حدث تجريف للارض ، حدث تجريف للعلم ، حدث تجريف للارض الزراعية أصل مصر ورمز قيمتها الحضارية التاريخية التي لا تقدر بثمن فى مقابل القيمة النقدية التجارية التي تجرى وراءها الطبقة الجديدة النهمه . وحدث تجريف للعلم ففقد قيمته المستمدة من علاقته بالمجتمع والحياة وتطلع الانسان الدائم لكشف المجهول وصار يعامل بطريقة ذرائعية تتحكم فيه قيم السوق وانتاج الجملة وربما أيضا الغش التجارى واللامبالاة والاهمال لأنه صار (شيئا) مثل بقية (الأشياء) فى ظل ظروف العلاقات الاجتماعية الاقتصادية المتخلفة . ص ١٢٢ .

ومن منطلق (التقدير) هذا ، أناقش قضية واحدة فقط ترددت فى دراسة عبد السميع ، وربما انطلقنا من هذه القضية لمناقشة بعض (التفرعات) المتصلة بها ، أما القضية ، فهي قضية (التوفيقية) .

وتنطلق فكرة (التوفيقية) من ذلك الموقف الذى واجهه مفكرون فى مطلع القرن التاسع عشر عندما واجههم اعصار الحضارة الغربية ، ذلك أنهم وجدوا فى هذه الحضارة أمورا لم يستطع عقلهم أن ينكر حجيتها وهى تلك العلوم الحديثة سواء فى المنهج أو المحتوى أو النتائج من كيمياء وفيزياء ورياضيات وطب وهندسة وعلوم زراعية وبيولوجية هكذا ، كذلك ما اصطلح على تسميته بـ (المنجزات التكنولوجية) المختلفة ، بل ونظم السياسة والاقتصاد ومظاهر الفن وأشكال الأدب وهكذا .

ولأن (التطور) و (التقدم) سنة الكون والحياة ، واليوم لابد أن يكون غير الأمس ولا بد أن يأتى الغد بما لم يكن حاضر اليوم ، كان على هؤلاء أن يأخذوا من مظاهر التحضر هذه ما استطاعت عقولهم أن تعيه وتستوعبه .

لكنهم من ناحية أخرى مسلمون عقيدة وشريعة ، والاسلام بالنسبة للمسلم ليس (مرحلة تاريخية ، تجيء ثم تنقضى ، وإنما هو (منهج حياة) فى كليتها وشمولها ، مستمر باستمرار الزمان ، وممتد بامتداد المكان . . ليست المسألة افتعالا وتعصبا ، ولكنها قضية الايمان . . فما دام المفكر يؤمن بوجود اله خالق قادر مبدع ، وأنه هو الذى أرسل نبيه محمد صلى الله عليه وسلم مبشرا ونذيرا بأذنه وسراجا منيرا ، فلا بد من التسليم بمحتوى رسالته . وعندما يقارن الانسان بين منهج دعا اليه الاله الخالق الذى يؤمن به ، وبين

منهج دعا اليه (مخلوق) ، فلا بد أن يؤمن بالأول . وما دام رسول الاسلام قد ذكر وحيا من ربه أن الاسلام هو خاتم الرسالات السماوية ، وأنه نبراس المؤمن الى ما شاء الله . لكل هذه الاعتبارات ، فان موقف الفكر المسلم هنا أن ينظر الى الاسلام على أنه منهج حياة يستمر باستمرارها .

واذا كان مفكرونا قد وجدوا ما أشرنا اليه مما لم تنكره عقولهم في الحضارة الغربية ، الا أنهم قد وجدوا فيها أيضا بعضا آخر مما تنكره العقيدة الاسلامية التي يؤمنون بها . فكان المأزق الحضارى الكبير ، فكيف كان التفكير فى الخروج منه ؟

هنا كان التحدى الحضارى والعقيدى الذى يلخص جتمية الاجابة عن التساؤل الآتى :

كيف يمكن أن يظل الانسان مسلما يعمر قلبه بالايمان ، ويمسك بما لا يغضب ربه ويؤمن بالله ورسله وكتبه واليوم الآخر ، وأن يستطيع فى الآن نفسه أن يعيش (العصر) بعلومه ونظمه واتجاهاته ؟

ان هناك من اختاروا الجانب الأول وحده ورفضوا الثانى ، وهناك من اختاروا الجانب الثانى ورفضوا الأول ، وكلاهما ظن انه قد حل المشكلة و (استراح) لموقف معين .

لكن الصعوبة الكبيرة كانت فى الموقف الثالث الذى رفض أن تكون القضية هى اما . . أو . . أبيض أو أسود وهو ينتمى اليه كاتب هذه السطور ولم تكن القضية أن (يجمع) الانسان الطرفين كما هما جمعا حسابيا ، والا فان هذا هو (التليف) بعينه لأن هناك فى هذا الجانب ما يتعارض ، وأحيانا يتناقض ، مع الآخر . . ولكنها هى : كيف يمكن (الانتقاء) من هذا الجانب وذاك بحيث يمكن (اعادة التركيب) فى وحدة عضوية متكاملة تتسم بالاتساق والتناغم والانسجام ؟

وأقول الحق ، فان المعيار الأول والحكم الأول هو للعقيدة الدينية الاسلامية . . هنا نجد الحل ليس عسيرا اذا أبصرنا الفرق بين (الدين

الاسلامى) و (التراث الاسلامى) ، فالدين - عقيدة وشريعة - هو ذلك الذى يتمثل فيما هو مدون بالقرآن الكريم والسنة النبوية ، كما يتمثل فى سنة الرسول صلى الله عليه وسلم قولاً وعملاً ٠٠ أما (التراث) فهو تلك الجهود التى بذلها علماء وفقهاء ومفكرون وفلاسفة مسلمون فكراً وعملاً سواء بالشرح أو التفسير أو التحليل أو التجديد أو الاجتهاد والاضافة والتطور أو الممارسة ٠

الأول ، وهو الاسلام عقيدة وشريعة ٠٠ هناك ضرورة الالتزام الكامل بهما بالنسبة للمسلم ٠

الثانى ، وهو التراث ٠٠ لا التزام فيه ٠٠ أنا نعرضه على عقولنا أن قبلته كان بها ، فان لم تقبله ، فلنا ذلك ٠

ومع الأسف الشديد ، فان كثيرين - ومنهم عبد السميع - قر جمعوا بين الأمرين تحت اسم (التراث) ، فكان فهم يحدد - فى رأينا - عن صواب التشخيص والتحليل ٠٠

ان الغزالى وابن خلدون والفارابى والقابسى والزرنوجى وغيرهم ، علماء كبار اقدان ، لهم كل التقدير والاحترام ، لكن رأيهم ليس ملزماً ، ورأيهم ليس حجة مطلقة ، فهم بشر اجتهدوا ، واجتهادهم قابل لأن يوصف بالصواب أو الخطأ ٠ وما دام الأمر كذلك ، فلنا أن نقبل من آرائهم ما نشاء وأن نرفض منها ما نشاء وفق أدلة وحجج وبراهين ٠

وأن يكون الخليفة المأمون قد فعل كذا وكذا ، وأن يكون المتوكل بالله قد نظم كذا وكذا ، وغير هذا أو ذاك من أئمة المسلمين وحكامهم ، فهو أمر أيضاً ليس بملزم وإن أمكن الاسترشاد به والاستفادة منه ٠ وحتى يمكن (فهم) كلا من القرآن والسنة ، قلابد من الاستعانة بعدد من الدراسات والعلوم والتدريبات ومناهج البحث المتعارف عليها ٠

وفى القرآن والسنة أمور ورد بشأنها نص واضح وصريح ، وهذه لابد من الالتزام بالانحياز لها وترك ما يتعارض معها ، لكن هناك أمور أخرى تحتاج الى اعمال العقل والاجتهاد والتفسير وخاصة تلك التى تتعلق بنظم

الحكم والسياسة على سبيل المثال ، فلم يحدد الاسلام هنا (شكل) الحكم ونظامه وانما وجهنا الى عدد من المبادئ والقيم التى يجب أن يقوم عليها ، أما التنظيم فلم يحدده لأن هذا أمر يتصل بتغير الزمان والمكان ، وما دامت علوم العصر الحديث قد أوسعته بحثا ودراسة وحظيت بالتجريب فى هذا المجتمع أو ذاك ، فلماذا لا يستفاد منها مع التكيف والمواءمة ؟

اننا نرى هذا أمرا يتفق وطبيعة الانسان ومنطق التطور التاريخى والاجتماعى .

ان (التوفيق) هو صورة من صور (المصالحة) و (المسالة) ، وليس هذا هو المنطق الذى يحكمنا ، ففى المصالحة والمسالة تحكيم للرأى الآخر فى الموقف أما الانتقاء واعادة التركيب التكاملى ، فالتحكيم هو لنا بما يتفق واقتناعا منا ومشكلاتنا وظروفنا .

ولسنا مع (الوسطية) لأن الوسطية انما هى (حيادية) سلبية لا تريد هذا ولا ذاك ، وانما تقف بينها حتى لا تصاب بما قد يصاب به هذا الطرف أو ذاك ، بينما نرى ضرورة الوقوف مع هذا الطرف أو ذاك وفقا لمتغيرات الموقف والعقيدة والمصلحة .

ونستمسح القارئ فى أن نسوق مثلا من « علوم الادارة »* لشرح وجهة نظرنا فى التفرقة بين (التوفيقية) و (التكاملية) القائمة على الانتقاء الارادى المبني على نقد وفحص واختيار :

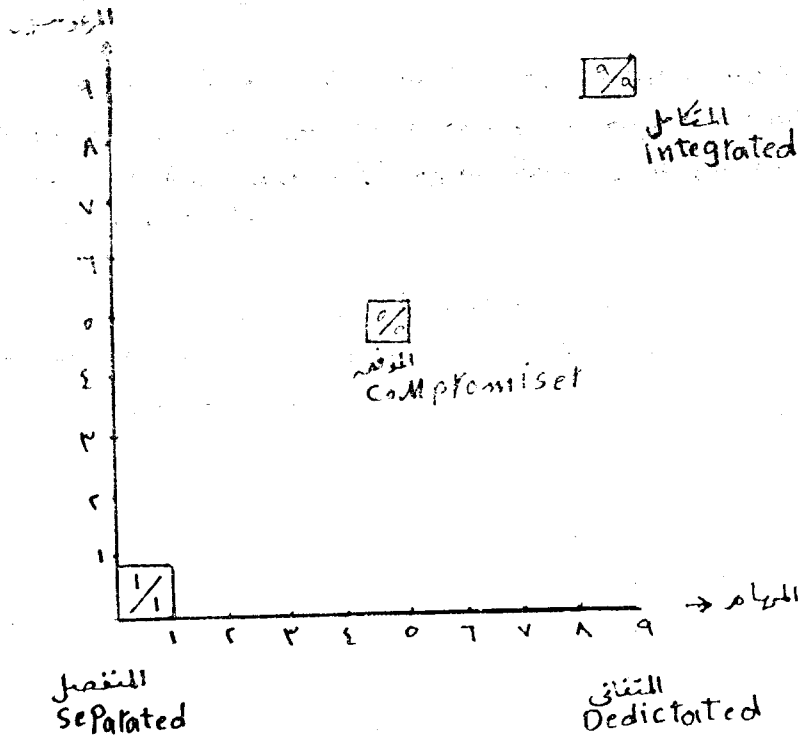
فهناك وجهة نظر تذهب الى أن الكفاءة فى العمل والعرض على القيام بالمهام المختلفة لتحقيق الانتاج من شأنه أن يعود بنتائج طيبة على العاملين بحيث يتحقق لهم الرضا والاشباع . وهناك وجهة نظر ثانية تذهب الى أن القضية ليست مجرد انتاج والقيام بمهام ، إذ أن هذا انما يقوم به (بشر) فلا بد من التركيز على اعتبارهم فى المحل الأول إذ أن هذا من شأنه أن يدفعهم الى الانجاز وسرعة الانتاج وجودته .

(*) هذا المثال أخذناه من دراسة - قيد التحرير - للدكتور محمد يوسف حسن أستاذ أصول التربية المساعد بتربية الاسكندرية .

الأولى تسمى (الإدارة العلمية) ، والثانية (الإدارة الانسانية) .

لكن هناك وجهة نظر أخرى وقفت على (الحياد) و (الوسط) ، وأن المسألة هي وفقا لما جاءت به اللوائح والتعليمات بحيث لا تتعلق المسؤولية بانتاج أو أشخاص ، وإنما بـ (قانون) يحكم سير العمليات ، وهذا النمط يسمى بـ (الإدارة باللوائح) .

وإذا مثلنا النظرية الأولى بخط احداثى أفقى والثانية بخط احداثى رأسى ، فقد قسموا الخط الى ٩ نقاط ، وبالتالي يكون النمط الأول وهو المسمى - أى - الإدارى فيه - (المتفانى) Dedicated (١/٩) ، والثانى وهو المسمى بـ (المرتبط) Related (٩/١) ، أما هذا الحيادى الوسط وهو المسمى (المنفصل) Separated (١/١) ، كما يمثله الشكل التالى .



لكن هناك نمط رابع يأخذ قدرا من هذا وقدرا من ذاك . انه لا يترك الأول لجان ممثلة ، نأخذ من هذا الطرف ممثلا ومن الطرف الآخر ممثلا حتى

نصل الى رأى لا يغضب هذا أو ذاك (حل يرضى جميع الأطراف) ، هذا النمط هو النمط الموفق Compromiser ، وقد أعطوه من الدرجات (٥/٥) .

أما النمط الخامس ، فانه لا يتعامل مع الموقف بطريقة حسابية : جزء من هنا مع جزء من هناك ، وانما هو يرى أن القضية بالفعل لا يمكن أن تكون اختيارا بين (انتاج) و (بشر) ، فمن الذى يحقق الانتاج ؟ البشر . ولكن ما يقيمة البشر بلا انتاج ؟ لا شيء ! لابد من صيغة هنا انتقائية تكاملية ، ولذا سمى النمط الموفق فى الادارة بأنه ادارة (عملية) - أقرب الى البراجماتية ، وسمى النمط التكاملى بالادارة (الجماعية) :

فى النمط الأول « العبرة بالعمل المدرسى .

فى النمط الثانى ، العبرة بالمرءسين .

فى النمط الثالث ، العبرة بالبقاء فى الوظيفة .

فى النمط الرابع ، العبرة بالمكان .

فى النمط الخامس ، العبرة بما يجب أن يكون .

مثال آخر من (العمارة) :

فكبار السن منا يذكرون من غير شك بيوتنا - سابقا - تبنى بطريقة تتفق والظروف الجغرافية والثقافية الخاصة بمجتمعنا ، فالأسقف عالية ، والغرف واسعة لأن بلادنا حارة معظم شهور العام ، وهذا كان يساعد على (ترطيب) الجو . والحرص كان واضحا فى أن تكون الواجهة الأساسية للنوافذ شمالية حيث الرياح تكون باردة أو لطيفة حيث تأتي من أوروبا وشمال غرب آسيا عابرة للبحر المتوسط . كذلك كنت تجد الجدران سميكة لتحقيق بذلك وظيفتين : جغرافية ، وثقافية ، وتتمثل الوظيفة الجغرافية فى أن الجدار السميكة وخاصة من الحجارة أو الطوب اللبن تعزل الحرارة ، وتتمثل الوظيفة الثقافية فى أن هذا الجدار (يعزل) الأصوات وخاصة (الحريمى) عن الآخرين من الضيوف ، و (يعزل) أصوات الزوجين عن أذان الأبناء .

والنوافذ تنقسم الى جزء أسفل يمثل ثلثى المساحة وجزء أعلى يمثل الثلث ، يمكن فتح هذا الجزء الأعلى فيدخل الضوء والهواء و (يحجب) من الداخل عن أن (يجرحهم) آخرون .

ونفس الشيء بالنسبة لأبواب الغرف الداخلية .. وهكذا ثم جاء النموذج المعماري الغربى .. حيث المدن الكبيرة المكسدة بالسكان .. الغرف ضيقة لأن بلاد الغرب باردة ، وكلما ضاقت الغرفة ، ساعد ذلك على تقبلها البرودة ، والاسقف منخفضة لنفس الغرض وكذلك النوافذ والأبواب ..

وليس هناك - فى ثقافة الغرب - عيب فى أن يرى آخر زوجا يقبل زوجته أو يعانقها ، وليس هناك عيب فى أن يسمع الابناء غزلا بين الأب والأم ، ومن هنا كانت الجدران الرفيعة والنوافذ والأبواب المختصرة التى تفتح ككل أو تغلق ككل ..

فضلا عن (العامل الاقتصادى) الذى يدحر أمامه أية تقاليد أو قيم دينية أو ثقافية ..

وكما حدث فى مختلف المجالات ، تم اقتباس النموذج المعماري الغربى دون أى (تكيف) لمواصفات الجغرافيا والثقافة ..

هل يعنى هذا ضرورة العودة الى النمط المعماري الشرقى التقليدى ؟ ليس تماما

فهناك متغيرات تفرض نفسها الآن .. ارتفاع التكاليف .. التكسب السكانى .. النظريات العلمية المختلفة فى البناء التى تمكننا من إقامة المباني شاهقة الارتفاع التى تحتوى على خدمات مختلفة ..

ولكن ، ألا يمكن (تكيف) البناء بحيث نستفيد فيه من النظريات العلمية الهندسية الحديثة مع مراعاة بعض القيم الثقافية التى نحرص عليها ؟ هنا سيبرز لنا البعض ممن يقول : ولماذا يتحكم فينا منطق (الحريم) - مثلا - ونعتبر رؤية نسائنا (جرحا) و (عورة) ؟ وما العيب فى أن يرانا هذا أو ذاك نفعل كذا وكذا أو نقول هذا أو ذاك ؟

هنا نعود مرة أخرى الى قضية (الايمان) ، فإذا لم تكن مؤمنا ، فقل ما شئت مثل هذه التساؤلات ، ولكنك ان كنت مؤمنا ، فلا بد من الحفاظ على مثل هذه القيم الثابتة بنصوص الشريعة ، وهى لا تشكل قيودا كما يحاولون تصويرها .

ولقد بدأت بالفعل جهود بعض المعماريين تخرج بنماذج معمارية تتكامل فيها الطرز الاسلامية الشرقية مع الطرز الغربية الحديثة فى (انتقائية)

و (تكاملية) ذكية ، ويمكن مشاهدة ذلك فى بعض بلاد الخليج العربى مثل الإمارات والمملكة العربية السعودية •

من هنا تأتى المفارقة الكبيرة بين رأينا ورأى صديقنا عبد السميع فى موقفه من (المشروع) الذى اقترحناه فى سلسلة محاضراتنا للدبلوم الخاص بتربية عين شمس عام ١٩٨٣/٨٢ بعنوان (نظرات فى الفكر التربوى المصرى) حيث حاولنا أن نحدد أسسا تقوم عليها هوية الفكر التربوى فى مصر ، هاجمنا من خلالها محاولة الاقتصار على احدى الثنائيات الشائعة بيننا : فرد ومجتمع ، عروبة واسلام ، مصرية وعروبة ، خبز وحرية • الخ •

ان ما أكدناه نحن ، هو ضرورة (الوحدة الاندماجية - اذا صح هذا التعبير السياسى بين كل طرفين لايامنا - كما أسلفنا - بأن الحياة نفسها عسير عليها أن تعيش ليلا دائما أو نهارا دائما ، أن تعيش معدة الانسان دائما على (الحلو) أو أن تعيش دائما على (الملح) • أن يظل الانسان ضاحكا أبدا أو أن يظل حزينا باكيا أبدا • انها دائما بين هذا أو ذاك فى حركة دياليكتكية واضحة •

انها ليست نوعا من التناقضات التى أشار اليها أرسطو بحيث يستحيل التوحيد الاندماجى التكاملى بين أطرافها ، فاذا كان من المستحيل منطقيا عند أرسطو أن يكون الانسان قائما قاعدا فى آن واحد ، وأن أكون فى مكانى هذا الذى أكتب فيه هذا المقال بمكة المكرمة وأكون فى نفس الوقت فى منزلى بالقاهرة ، فانه ليس من المستحيل منطقيا أن يقوم نظام المجتمع بحيث توفر فيه للمواطن فرصة ممارسة حرياته دون أن يتركه تحت تهديد الجوع والتشرد • ليس هذا مستحيلا منطقيا لأن هذا هو ما أصبحت بعض المجتمعات تسعى اليه الآن • ان بعض الدول الرأسمالية وخاصة الكبرى ، قد أكدت لها التجربة الاجتماعية والتاريخية أن الحرية وحدها لا تكفى فأخذت تظهر تنظيمات للتأمين والمعاشات عند العجز والاضرابات والبطالة والاعانات والضمان الاجتماعى ، وغير هذا من اتجاهات تعكس روحا اشتراكية • وها نحن أيضا نسمع من بعض الاحزاب الماركسية نقدا لأصولها وتعديلا وتطويرا حيث تراجع البعض الآن عن فكرة (ديكتاتورية البروليتاريا) ، وفى الصين نسمع عن (انفتاح) تناقلته وكالات الأنباء • وهكذا •

ان عبد السميع يستدرك بقوله : « ليس القصد ان نفصل بين المصرية والعروبة أو حرية الفرد وحرية المجتمع وغيرها من الثنائيات » ، ثم يطرح التساؤل الكبير : « كيف نجمع بين تلك الثنائيات » ؟ ص ١٦٧ ، وهذا نفسه هو الذى نظرحه ٠٠ فنحن لم نقدمها فى صورة (تجميعية) أو (تلفيقية) وانما بينا ضرر الاقتصار على واحد ، منها دون الأخرى ، وبالتالى فما سقناه ، انما هو (جدول أعمال) لمشروع يحتاج الى نقاش والى بحث ولا أستطيع أن أزعم أننى وحدى أملك الحل النهائى .

ان الحل - كما نؤكد دائما - يكون بالحوار والجدل والنقاش بين مختلف الاطراف ، أما أن يطرح هذا أو ذاك رأيا ثم يمضى فى طريقه بحيث يكون رأيه رجع صدى لصوت آخر أصلى انطلق من مجتمع آخر ، فتلك تبعية قد لا تقل خطورة عن صور الاحتلال العسكرى والنفوذ السياسى أو السيطرة الاقتصادية .

ومن هنا ، فقد كان اقتراحنا الذى لم يحظ بتقدير عزيزنا عبد السميع وهو مشروع فلسفة تربوية على المستوى القومى حيث قال أننا لو تركنا الأمر لاجتماعات مثل تلك التى اقترحناها « نتوقع خليطا عجيبا من الآراء المتباينة أشد التباين من أقصى اليمين الى أقصى اليسار ، فما بالنا أن حاولنا حشد كل الآراء فى المجتمع على اختلاف طبقاته » ص ١٦٧ .

ويبدو أن فكرتنا لم تكن واضحة كل الوضوح لصديقنا العزيز . اننى أتفق معه فى أن (الفلسفة) ليست مجرد رداء يخلعه الانسان بفعل ارادى على مجتمع ، وانما هى صياغة فكرية محركة لمجتمع بأسره فى كليته وعمومه ٠٠٠ ومن هنا يتضح لنا :

أن ليس لفرد اذن من الافراد أن يجلس ليكتب على مكتبه محمدا بنفسه الفلسفة التى يسير عليها مجتمع ما ٠٠

فاذا أضفنا الى ذلك حقيقة أخرى وهى أن العلة الحقيقية فى انتقاد فكرنا التربوى لهوية خاصة ، هو افتقاد مجتمعنا لمشروع حضارى شامل ينظم مجالاته ونظمه وحركة سيره ، فان لنا أن نتساءل : وكيف اذن نصل الى هذا المشروع الحضارى ؟

ها هنا برزت فكرتنا - كمثال - فى مجال التعليم ٠٠ أن تطرح مشكلاته وقضاياها ، وتجربى حولها وفيها الدراسات والبحوث ، ويدور حولها الحوار والنقاش ٠

ان أمامنا اذن ركيزتين :

الأولى : دراسات متخصصة متعمقة لـ (واقع التعليم المصرى) ٠

الثانية : الحوار والنقاش الجماعى حول هذه الدراسات ٠

ليس المراد اذن هو مجرد (نهضة تعليمية) كما فهم عبد السميع ، وانما هو محاولة لـ (تشفية) جهود علمية واجتماعية وفكرية ، والاتفاق على خطوط فكر عام بحيث لا يقوم هذا الاطار الفكرى العام على مجرد (سباحات) فكر محلق فى أجواء الخيال والنظر ، ولا يقوم على مجرد الجهد الفردى بأى حال من الأحوال ٠٠

لقد قدمنا هذا المشروع فى أول عام ١٩٧١ فى خطاب مفتوح وجهناه لرئيس الوزراء فى ذلك الوقت (الدكتور محمود فوزى) ، وها نحن فى عام ١٩٨٦ ، ولا خطوة من هنا أو هناك ، لأن الذى يحكم تفكيرنا وجهنا هما تلك الآفتان ٠ الفردية الفكرية - التفكير الخيالى النظرى ٠ وباليت الفردية الفكرية تقوم هى نفسها على الابداع والذاتية ، وانما هى فى أغلب الأحوال - كما قلنا - رجع صدى ، وما القائل أو الكاتب الا (وسيط) يسمعنا كلام غيرنا !!

ويمكن لنا أن نضرب أمثلة لعدد من الأفكار ، لا أريد أن أقول أنها (خاطئة) ، ان لا أزعم لنفسى - كما ذكرت فى البداية - امتلاك معايير الحقيقة الكاملة ، وانما أقول أنها أحكام غير موفقة وذلك لانطلاقها من موقف فكرى مغاير تماما لموضوعها :

فعبد السميع - مثلاً - يتحدث عما كتب فى مجال الفكر التربوى الاسلامى على أنه (تراث) كما ذكرنا دون تفرقة ، وفى ذلك مزلق خطير لأنه يساوى هنا بين (المطلق) و (النسبى) ويحكم عليها بمعيار واحد ٠٠ يساوى بين (البشرى) ولـ (الالهى) ، ومن هذا المزلق يمكن أن تقع أخطاء لا أول لها ولا آخر نكتفى هنا بالتلميح دون التفصيل للامر فى مجمله دون

التطرق الى جزئياته ٠٠ ففى ص (١٢٨) يقابل بين موقفين : اما الأخذ بفكر الغرب أو التبهر فى (التراث) ، فاذا فرقنا بين (التراث) و (أصول العقيدة) كما تبدت فى القرآن والسنة ، فان المشكلة لا يكون لها وجود لأنه - فى نظر المسلم - لا اختيار بين غرب وعقيدة !! وانما يمكن أن تكون هناك مقارنة واختيار بين رأى (روسو) و (الغزالى) ، بين دوركايم وابن خلدون ٠٠ فلا جناح على لو فضلت رأى روسو على الغزالى أو دوركايم على ابن خلدون لكن يستحيل على أن أظل مسلما لو قارنت وحاولت الاختيار بين (رأس المال) والقرآن ، فيما يطرحه هذا أو ذاك !؟

وهكذا تأتى معظم - ان لم تكن كل - اشارات عبد السميع للتراث :
صص ١٣١ ، ١٤٩ ، ١٥٨ ، ٠٠ الخ .

وبسبب نفس المنطلق ، نجد عبد السميع وهو يبحث عن قدرة (الاسلاميات) على تحدى الفكر التربوى الغربى ، نجده - وأرجو ألا يغضب لاختيارى هذه الكلمة ، اذ أنها فرضت نفسها فى التو واللحظة على فكرى فأثرت أن أكون صادقاً معه ومع نفسى - (يصطاد) أمثلة لا بد أن تنتهى الى الحكم الذى يريده بداية ٠٠ ان أمامى الآن (دولاب) ملابس غير محكم الغلق مهتز الجوانب ، ومن ثم من الممكن أن يقوم انسان بالبحث فى أماكن أخرى عن (دواليب) مماثلة لينتهى الى الحكم بأن (الدواليب) أصلاً لا يستطيع القيام بتلك الوظيفة التى نريدها وهى أن يكون مكانا لحفظ الملابس، دون أن يدرى - أو لعله لا يهتم بذلك - أن هناك أمثلة أخرى ، وهى الأكثر، تقوم بوظيفتها خير قيام ، وأن الخلل القائم يمكن أن يعالج ولا يهدم وظيفة الدواليب !!

فعبد السميع مثلاً ، يضع خاصية من عنده بأن الكتب التربوية تعاملت مع (التراث) - مع تحفظنا على الكلمة وتعميمها - على أنه نتاج فترة تاريخية واحدة ويسوق مثلاً لذلك ٠ كتاب تاريخ التربية الاسلامية للدكتور أحمد شلبى ٠ ترى ماذا لو كان وضع فى الاعتبار أيضاً - مثلاً - دراسة خطاب عطية عن التعليم فى مصر فى العهد الفاطمى الأول ، والعديد من البحوث والدراسات التى أختصت بمفكر واحد ٠ ابن سينا ، الغزالى ، ابن خلدون ، اخوان الصفا ٠ وغيرهم كثيرون ، والفكر التربوى فى (الأندلس

والفكر التربوى فى عهد الممالك البرجية وكلتاها لعبد البديع عبد العزيز
عمر ٠٠ وهكذا ؟ !

ولا أريد أن أذكر أمثلة أخرى ذكرها عبد السميع أعتقد أنه لا يخفى
عليه أن هناك غيرها كثير ، أقوى وأدق علمية وأوفى دراسة ، فهل قصد أن
يصوب معوله الى بعض الاشجار التى يعلم أنها هشة لتسقط أمامه بسرعة
فيسعد بذلك معلنا أن هذا النوع من الاشجار لا يصلح أن يستظل بظله انسان
حتى لا يقع على رأسه ؟ !

ومن ناحية أخرى ، وهو بصدد مناقشة وعرض بعض محاولات الحلول ،
يختار أمثلة ، موضوعها (تراثى) ، لكنها مما تم فى دائرة اليسار العربى ،
لا اعتراض على ذلك ، وليست محاولات الدراسة احتكارا لأحد ، لكن : هل
يجوز لى أن أعتمد فى موقف الفكر العربى من المادية التاريخية أن أقصر
أمثلتي على كتابات سيد قطب ومحمد قطب ومحمد البهى ومحمد الغزالى ؟
قد يكون ذلك أمرا هاما ، ولكن ألا تقتضى (الموضوعية) أو الحد الأدنى منها
البحث أولا عن القضية عند أصحابها ؟ هل يجوز للقاضى أن يستمع الى شهود
النفى دون شهود الاثبات ؟ وهل يجوز للقاضى أن يستمع الى آراء من (سمعوا)
أو (قرءوا) عن الحادث أو الواقعة فقط ؟ هل يكون لنا العذر اذن ، اذا طلبنا
(رد) القاضى ؟ !!

وعلاقة ثورة يوليو ١٩٥٢ بالدين كما أشار اليها عبد السميع ص ١٥٠
تحتاج الى كثير من المراجعة ، فالحكم فى مصر خاصة فى فترة الثورة كان
يريد من علماء الدين فكرا مسائرا دائما غير ناقد ، ومن هنا فاذا رأينا كتابات
تظهر بعد القوانين الاشتراكية تربط بين الاشتراكية والاسلام ، فلان الدولة
لم تسمح الا بتلك الكتابات ، وكانت هناك غيرها لا تفعل ذلك بل تستنكره ،
وأصحاب هذه الكتابات كانت كتاباتهم تصادر أو يرمى بهم فى غياهب
السجون حيث يرون من صور التعذيب ما يقف العقل أمامه أحيانا غير مصدق
أن يحدث هذا . ثم ان التيار الذى كان لا يريد المسايرة ويريد موقفا نقديا ،
ضرب سنة ١٩٥٤ و ١٩٦٥ ٠٠ ولو أنصف عبد السميع وأشار الى مثل هذا
لخفت مسحة (الادانة) التى تفوح رائحتها من بين السطور .

وفى هذا الجزء (ص ١٥٠) يهمننا بعض التصحيحات :

فصديقنا يذكر أن الفكر القومى انحسر بالانفصال سنة ١٩٦١ ، ويبدأ الهجوم على الاتحاد والشيوعية ٠٠ ثم تصدر قوانين يوليو الاشتراكية ٠

والصحيح أن الانفصال حدث بعد قوانين يوليو ، ومن ثم تحتاج الأحكام الى مراجعة ٠ والهجوم على الشيوعية لم يبدأ بعد الانفصال ، وانما بدأ يخف ويهدأ ، وذلك أن ما يريد عبد السميع الإشارة اليه ، فهو ما حدث عام ١٩٥٩ عندما بدأ المد الوجودى العربى يزداد فوقف خورشوف يسخر منه ومن زعيمه عبد الناصر وحارب شيوعيو العراق اتجاه ثورتها فى يوليو ١٩٥٨ نحو الوحدة مع مصر وسوريا ، فكانت تلك الحملة الضارية من عبد الناصر على كافة الماركسيين ٠

ولم يظهر الحلف الاسلامى عام ١٩٦٥ ، وانما بدأت الدعوة له بعد حرب ١٩٥٦ وبداية ظهور المد القومى ، فحاولت ثورة يوليو أن تقوم بعمل مضاد فأنشأت ما سعى بـ (المؤتمر الاسلامى) تولى مسئوليته أنور السادات وأنشئ (المجلس الأعلى للشئون الاسلامية) يقوده أحد ضباط المخابرات (!!) وهو محمد توفيق غويضة ٠

وما أشار اليه عبد السميع فى ص ١٥١ من (أسلمة) بعض العلوم ، لم يكن مجرد رد فعل لهزيمة ١٩٦٧ ، فالكتب التى ظهر فيها هذا لم تنتشر الا بعد (المد النفطى) بعد أنتصار أكتوبر ١٩٧٣ ، وبالتالي ، فان المرجع فى ذلك كان مساييرة من المتعاقدين الذين تدفقوا على الجامعات السعودية فى حقبة السبعينات وأوائل الثمانينات ٠

فاذا ما انتقلنا الى التعامل مع الطرف الآخر وهو (الغرب) فقد كنا نود ألا يكون (غربا سياسيا) بمعنى اقتصاره على أوروبا الغربية والولايات المتحدة ، وانما (غربا حضاريا) بحيث يضم الى ما سبق ، مجموعة الدول الاشتراكية ، فها هنا تكون الصورة أكمل وخاصة اذا ربطنا حركة الفكر بالمتغيرات السياسية ، وهو ربط حيرى وضرورى لصحة التشخيص وعلمية الدراسة وموضوعية التفسير ، وخاصة فى بلاد العالم الثالث حيث ترتبط حركة المجتمع كلها بارادة القيادة السياسية أيا كان توجهها ٠

فسيادة البراجماتية فى الفكر التربوى ، لم تقتصر على مصر وحدها
أو البلاد العربية وحدها ، بل لقد شمل مناطق كثيرة فى العالم لأسباب كثيرة
من أهمها ، الوزن السياسى الذى صار للولايات المتحدة عقب الحرب العالمية
الأولى حتى لقد استعان الاتحاد السوفيتى نفسه بعد ثورة أكتوبر ١٩١٧
بجون ديوى !

وهناك أسباب ترجع الى ديوى نفسه كفيلسوف ، وهناك فترات تاريخية
نجد فيها فيلسوفا يبرز غيره فى عصره ، ومن ثم يسيطر فكره على مناطق
كثيرة كما حدث بالنسبة لأرسطو وبيكون وديكارت وكانط وغيرهم .

وهناك سبب هام : وهو أن ديوى ربما أكثر من أى فيلسوف آخر قد
وثق العلاقة بين الفلسفة والتربية حتى لقد غلبت دراساته الثانية على الأولى ،
بينما كانت التربية تجيء - غالبا - كعمل ثانوى وجهد تكميلى لمعظم
الفلاسفة ، ومن ثم فمن الطبيعى أن تضيع آراؤه وتسيطر على مساحات واسعة
من الفكر التربوى .

وبالمطبع هناك موقف التبعية فى مصر للغرب ، وارسال البعثات التربوية
بصفة أساسية الى الولايات المتحدة .

لكننا نجد التيار يتغير بدءا من الستينات ، إذ تفرض القيادة السياسية
الفكر الاشتراكى ، ومعظم من كان فى ساحة الفكر التربوى قد رضعوا من
ثدى البراجماتية ، فماذا يفعلون ؟ لابد من محاولات (توفيق) غلب عليها
مع الأسف الشديد (التلفيق) كما أشار عبد السميع بحق .

لكن البعثات التى بدىء فى ارسالها الى الكتلة الشرقية وهذا (الزخم)
من الكتابات الاشتراكية فى الستينات بدأت ثماره تظهر فى السبعينات وحتى
الآن متمثلة فى ظهور تيار يسارى واضح وكتابات اشتراكية فى فكرنا
التربوى لا أدري لماذا تجنب عبد السميع دراستها حتى تكتمل الصورة ؟

وليسمح لى صديقنا العزيز أن ألفت نظره الى أن قوله بالتراجع
الأمريكى عن آراء ديوى منذ الخمسينات صحيح ، لكن مما لا يقل عن ذلك
(دراسات تربوية)

صحة ، أنهم قد بدءوا مرة أخرى يعودون إليه منذ السبعينات وإن كنا لا نقصد أنه قد عاد بنفس القوة والسيطرة التي كانت له من قبل فهناك تيارات وأفكار أخرى تولدت عن الظروف الجديدة قد أصبحت تمثل مكانا قياديا مرموقا في مسيرة الفكر التربوي عامة .

وكاتب هذه السطور يذكر أنه عندما كان في مهمة علمية سنة ١٩٨١ عرف جمعية تربوية كبيرة باسم جون ديوى انضم إليها وهي تعقد مؤتمرا سنويا تقدم فيه أبحاث عديدة بعضها يتناول فلسفة ديوى التربوية !!

وبعد ...

لقد كانت دراسة عبد السميع بالفعل دراسة دسمة ثرية مثيرة ، وكنت أتمنى لو قد أطلق العنان لقلمه ليبيح بكل ما في فكره وصدره ، فانا أعلم عن عبد السميع قدرة يحسد عليها على دعم اغضاب أحد ، لكنه ورغم أنه قد استخدم منهج (التوفيق) بين أن يقول الحق وبين ألا يريق وما يثير الصياح عليه والصراخ والعيول .